

وصمة العلاج النفسي

لا زال البعض يتعامل مع الطب النفسي على أنه طب المرضى التعساء الذين تطاردهم ذكريات ماضيهم المرضي، حتى أن التردد على عيادة الطب النفسي أشبه بالسُّبة الاجتماعية التي يخجل منها الكثيرون، كما أن البعض يرفض الذهاب إلى العيادة النفسية؛ حتى لا تلاحقه الشائعات لارتباط المرض النفسي في ذهن البعض، على أنه خلل في السلوك وعطب في المزاج العام، وعجز عن التكيف مع الآخرين.

ورغم قناعة البعض أنهم مرضى أو مضطربون، إلا أنهم يتعايشون مع المرض، ولا يذهبون إلى العيادة النفسية، بل إن البعض حينما يذهب إلى العيادة النفسية ويخضع لبرنامج

علاجي، ثم يَمُنُّ الله عليه بالشفاء، فإنه يحاول نسيان تلك المحطة المرضية في حياته، ويسقطها تمامًا من ذاكرته، بل وقد لا يعترف بفضل المعالج النفسي في عملية علاجه وشفائه. والدليل على ذلك أننا لم نقرأ يوماً بالصحف كلمة شكر لطبيب نفسي نجح في علاج أحد مرضاه، مثلما نرى مئات رسائل الشكر وكلمات التهاني لأطباء القلب والجراحة وغيرهم، بل أكثر من هذا.. جاءني فتاة مريضة نفسيًا، وبعد عدة جلسات تمكنت من معرفة ماضيها وتاريخها المرضي، ونشأتها والتناقضات التي في حياتها، وأمكن مساعدتها على استرداد عافيتها النفسية، والشفاء من الأعراض المرضية التي كانت عائقًا أمام استمتاعها بالحياة، حتى أنها أقبلت على الحياة، بل وتقدم لخطبتها شاب مناسب، وتحدد موعد الزواج، وهي لازالت في المرحلة العلاجية الأخيرة، وأخبرتني هذه الفتاة عن علاقتها بخطيبها واستعدادها للزواج، وإعدادها لمكان الحفل، وطباعتها لكروت الدعوة، وكل التفاصيل الأخرى التي تُتخذ في مثل هذه المناسبة، وكنت معها في كل خطوة أزودها بالقوة النابعة من الأسلوب العلاجي

الذي كنت أتبعه معها في زيادة ثقتها بنفسها، والارتقاء بقدراتها الكامنة لديها، وفرحت لها وأبدت لها سعادتي وتمنياتي بالتوفيق في حياتها الزوجية، ولكنني فوجئت بها تقول لي أنها تأسف وتحس بالآلم، لأنها لن تستطيع دعوتي إلى حفل زفافها، فكان من الطبيعي أن أستفسر عن سبب ذلك، مع أنني عادة حتى ولو دعيت لأي فرح نادراً ما ألبي دعوات الأفراح؛ لأنني بالفعل لا أجد نفسي مع الضجيج، وأعتبر حضور الأفراح عملية مرهقة لما يترتب أثناءها من مجاملات وكثرة السلام وغيره. ولكنني أحببت أن أتبين السبب وراء رد الفعل هذا.. فقالت إنني أخشى أن تراك بعض القريبات فيعرفون من خلال وجودك في حفل زفافي أنني كنت مريضة وكنت تعالжинي.. وبكت وهي تقول لي أنها تتمنى أن أكون معها في تلك اللحظة، وأنها تعترف أنني كنت مساعدة لها في الوصول إلى ما وصلت إليه في حياتها، فأظهرت لها تفهؤمي لما قالت، وأكدت لها أنني سأكون معها بقلبي ومشاعري، ولكنني أحسست في الوقت ذاته بمرارة مصدرها أن المعالج النفسي أشبه بالجندي المجهول.. مطلوب منه أن يقوم

بدوره في الخفاء، أو كأن المرض النفسي وباءٌ يتبرأ الكثيرون من الاعتراف بإصابتهم به، وبالتالي تنتج محاولة إسقاط المعالج النفسي من الذاكرة، اعتقاداً منهم أنهم بذلك يحون تلك الفترة من حياتهم.

إن في هذه القصة الواقعية ما يتطلب منا شرح الخلل في مفاهيم البعض إزاء العلاج النفسي، وإزاء الإصابة بالأمراض والاضطرابات النفسية، فهي كأي مرض عضوي يمكن أن يُصاب به الإنسان، ثم يتعافى منه بطريقة علاجية معينة، وهي ذائعة الانتشار، حتى أنه يمكننا القول بأن الأمراض النفسية هي أكثر الأمراض انتشاراً في هذا العصر؛ بفعل التعقيد الحياتي الذي نعيشه، وبفعل إيقاع العصر البالغ التشابك، وبفعل الاحتكاك الحضاري المؤثر على السلوك، وبفعل عوامل أخرى يطول شرحها. . وتتعدد الآراء في حجم تأثيرها. ولذلك فكل منّا معرض بدرجة أو بأخرى إلى الإجابة بأي نوع من الاضطرابات النفسية، وفي صدارتها القلق والاكتئاب واستخدام الميكانيزمات والحيل

الدفاعية، نتيجة الظروف الضاغطة التي تحيط بنا. ومن ثم فلا خجل من الاعتراف بالمرض إذا ما أُصيبنا به، ولا نتردد ولا ننزعج من الذهاب إلى عيادة الطبيب النفسي، بل إن الإنسان في الدول المتقدمة، يعتبر الذهاب إلى المعالج النفسي ضرورة للوصول إلى الصحة النفسية الكاملة، بل إنه قد يكون نوعاً من المباهاة الاجتماعية، بدليل انتشار العيادات النفسية في كل مكان.

الإعاقة لا تلغي الإرادة

لعلَّ علم نفس المعاقين من أكثر أقسام علم النفس إثارةً وأهميةً، ذلك لأن الحضارة - في آلياتها وسرعة متغيراتها وكثرة تعقيداتها وأثارها المفجعة - أفرزت كمًّا هائلًا من المعاقين، تارةً من خلال حوادث السيارات، أو من أخطاء العمل أو العلاقة بين الإنسان والآلة، أو من خلال تعرُّض رجال الشرطة للإصابات أثناء مطاردتهم للمطلوبين. ومن ثم فإن إرشاد المعاقين نفسيًّا أصبح مطالبًا - إزاء هذا التنامي المضطرد - أن يوفر سُبلًا جديدةً لمساعدة هذه الفئة على التكيف مع إعاقتهَا ومع المجتمع، وكان لي خلال دراستي للماجستير أن أقف على الكيفية التي يمكن بها مساعدة المعاق على التكيف، حيث كان «الكورس» ينظم دورةً

يتم خلالها استضافة أحد المعاقين؛ كنموذج من النماذج التي استطاعت أن تنتصر على إعاقتهما؛ فأمكنني أن أستدل على أحد هذه النماذج، وهو شاب كان يعمل ضابطاً شرطة، وأصيب بشللٍ كامل خلال تعرضه لإطلاق النار من مجرم كان يطارده، وعلى أثر ذلك شلت كل أطرافه، حتى أنه ما كان يستطيع أن يتحرك، ولكنه كان يقول عبارةً تحمل الكثير من الفلسفة والتحدي لظروفه الخاصة، حيث كان يقول إنه إذا شلَّ الجسم من أسفل الرقبة؛ فلا يعني ذلك أن الإنسان يكون مشلولاً، لأن الشلل يكون شللاً إذا أصاب الدماغ وليس الأطراف.. ولذلك فإن الكثيرين من الذين يملكون صحة بدنية وأطرافاً متحركة وسليمة؛ فإن ذلك لا يعني أنهم غير مشلولين، لأن عقول بعضهم تكون معطلة أو عاطبة، أو لا تعمل بالطاقة الإبداعية الكافية. وهذا الشاب المعاق لم تأتِ فلسفته من فراغ؛ ولكنه ترجم قدراته العقلية إلى فعل، حيث استطاع أن يحول عجزه إلى فلسفة استطاع من خلالها أن يتكيف مع جسده المشلول، بطريقة وأسلوب مكنه من استمرار القدرة على العطاء.. فاستطاع وهو المقعد أن يكون طاقةً وفرداً

يخدم المجتمع ، وذلك من خلال مؤلفاته التي اعتُبرت إضافة للمكتبات البوليسية والنفسية، وكان قادراً على إثارة اهتمام كل من يقرأ له، فلم تقعه إصابته بالشلل لأنه استطاع أن يتحدى إعاقته، وأن ينتصر على عجزه بتشغيل عضلات عقله، حتى أنه كان مُنتجاً أكثر من الأصحاء.

وقد قمنا كفريق عمل بزيارة لمنزل هذا الشاب، فكانت المفاجأة أنه يرقد داخل الكتب، وكأنه يسكن مكتبة؛ بحيث حوّل كل شيء في بيته لخدمة هذه المكتبة المليئة بعشرات الكتب وآلاف المراجع والمجلات، وكان اللافت للنظر أنه يعرف أين يوجد كل كتاب، حتى أن المرء يخال له أن ذاكرته أقوى من ذاكرة الكمبيوتر، وبإيماءة من عينيه يُحدّد له مكان الكتاب، وفي أي رف من الرفوف، ويمكنه أن يشرح له موضوعه العلمي.

مثل هذا الإنسان المعاق الذي حفّزته الإعاقة برغبة التحدي للانتصار على عجزه هو بمثابة نموذج يُحتذى به، ولم يكن هذا

الشباب يفخر بما أحرزوه، وبما أثاره فينا من إعجاب؛ بل كان يتصرف بغير غرور، وكما كان يميل إلى التواضع ويشعر بأنه يملك أفقاً إنسانية بالغة الروعة. أدركت كم كانت معاناة هذا الشاب حينما وجهت له الدعوة للحضور إلى الجامعة، فقد كان من الصعب عليه الانتقال كما ينتقل الأشخاص العاديون، حتى أننا اضطررنا إلى استئجار «عربة فان»؛ حتى يمكن نقله وهو على كرسيه المتحرك، وبكافة الأجهزة المساعدة التي يعيش من خلالها. ولكن الرغبة في الحياة والتحدّي، والقدرة على التكيف مع الواقع، والإيمان بالذات، واستثمار الطاقات المتاحة لدى المرء، كل ذلك وغيره يُعد من الوسائل التي تساعد المعاق على أن يسجل اسمه بحروف من نور في قائمة المضيفين للنتاج البشري وللحضارة. إن «جاك واست هاوس» هذا الشاب المعاق الذي تحدّى إعاقته أراد أن يقول خارج مؤلفاته أن هيلن كيلر ليست النموذج الوحيد الفذ؛ بل إن هناك قصصاً أخرى لأفراد معاقين حققوا إنجازات عظيمة تستحق التسجيل؛ بل إن بعضهم استحق بجدارة جوائز دولية، واستطاع أن يتجاوز

ويتفوق على أصحاب أسوياء. ربما لأن العلي القدير حين يحرم إنساناً من شيء فإنه يعوضه بأشياء أخرى، فالمعاقين لا يجب أن يتصوروا أنفسهم بشرًا أكثر دونية من غيرهم، بل إنهم يكونوا في الغالب معبئين بطاقات لا تتوفر لأصحاب أسوياء، ومن ثم فالإرشاد النفسي عليه مساعدة هؤلاء على اكتشاف واستثمار هذه الطاقات.